

الفصل السادس

إنشاء الأدبيات المسيحية المبكرة: العهد الجديد والمنحولات

في النصف الثاني من القرن ٢م بدأت واحدة من أهم عمليات تحقيق الهوية المسيحية: إنشاء الكتب المقدسة الخاصة بالمسيحية. وتمثل مسألة تحديد زمن الأدبيات المسيحية ومكانها، وسمات فنونها، وإبداعها، ومنابعها، ومصادر كتبها التي أقرتها الكنيسة كتباً مقدسة، والتي لم تقرأها، هذا كله يمثل صعوبات جمة. فالعهد الجديد، وهو الكتاب الذي يقره المسيحيون دون استثناء ويجلونه، احتوى على سبعة وعشرين سفرًا: الأنجيل الأربعة، وأعمال الرسل، وأربع عشرة رسالة تنسب إلى بولس، وواحدة ليعقوب، واثنان لبطرس، وثلاثاً ليوحنا، وواحدة ليهوذا. وتدعى هذه الأخيرة أسفاراً جامعة مسكونية لأنها تعالج مسائل كنيسة عامة، وليست موجهة، خلافاً لرسائل بولس، إلى كنائس بعينها. وتنتهي مجموعة أسفار العهد الجديد برؤيا يوحنا اللاهوتي. ولكن الأسفار التي دخلت كتاب العهد الجديد لا تمثل في حقيقة الأمر سوى القليل من الأدبيات المسيحية الكثيرة التي أنشئت إبان القرون ١-٣م. ولم يقر قوام كتاب العهد الجديد إلا بعد نزاعات مديدة في مجمع لاوديكية الذي انعقد في العام ٣٦٣، ثم في مجمع قرطاجة الذي انعقد في العام ٤١٩م، أي بعد قرون من ولادة المسيحية. وما له دلالة أنه لم يصل إلينا أي مخطوط كامل من الأسفار التي دخلت كتاب العهد الجديد، يمكن أن يكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمؤلفيها أو بأول من نسخوها. وتتنمي أقدم مجموعة من كتاب العهد الجديد: قانون سيناء، إلى القرن ٤م؛ بيد أنه لم يعثر إلا على قطع متفرقة من برديات لا يرجع تاريخها إلى قبل الربع الأول من القرن الميلادي الثاني.

وكنا قد أشرنا سابقاً إلى أن الدعوة بقيت شفوية إلى ما بعد صلب يسوع بعشرات السنين، وأن كلمة «إنجيل» لم تكن تعني النص الإنجيلي المكتوب، إنما كانت تعني بشارة يسوع وحسب. وهذا هو معنى هذه الكلمة في رسائل بولس الذي لم يستند ولو مرة واحدة إلى إنجيل مكتوب: في رسالته الثانية إلى الكورونثيين على سبيل المثال، يقول: «إنه إذا جاء أحد وأخذ يبشر بيسوع آخر، غير الذي نبشر نحن به.. أو ببشارة أخرى (= بإنجيل آخر) لم نعتمدها لكنكم متسامحين معه كثيراً». وبهذا المعنى عينة استخدمت هذه الكلمة أيضاً في رسالة بولس إلى الرومان. ولم تستخدم هذه الكلمة (كلمة «إنجيل»: من الكلمة الإغريقية «إيفنجيلي» = «بشارة»)، بمعنى النص الإنجيلي المكتوب، قبل القرن الميلادي الثاني. ففي أواسط القرن ٢م. نوه الكاتب المسيحي يوستينوس إلى أقوال يسوع و «ذكريات» الرسل، أي الأسفار التي نسبت كتابتها إلى الرسل: بعض الأناجيل.

وبقيت الروايات الشفهية موجودة حتى في الحقبة التي ظهرت فيها الكتب. ففي كتابه «التاريخ الكنسي» ساق يوسفوس القيصري قول بابيوس الذي جمع في النصف الأول من القرن ٢م، القصص الشفهية: «... إذا ما قيضت لي مقابلة أحد الكهول، كنت أسأله بحرص شديد عن تعاليم الأبحار: ماذا قال مثلاً اندراوس، وماذا قال بطرس، وماذا قال فيليبوس، وماذا قال توما أو يعقوب. لأنني كنت أعتقد أن معلومات الكتب لا تجديني النفع الذي يقدمه لي الصوت الحي الأكثر تغلغلاً في الزمن». وعلى امتداد القرن ٢٠ استخدم العلماء شتى طرائق التحليل وأساليبه لدراسة أناجيل العهد الجديد الأولى على وجه الخصوص، وأبرزوا فيها مجموعات مختلفة من الروايات: أقوال يسوع، والقصص التعليمية، وقصص المعجزات التي صنعها يسوع. وعدت نصوص الكتب اليهودية المقدسة التي كانت تتكرر من موعظة لأخرى. جزءاً لا يتجزأ من الرواية، وهذا ينسحب خاصة على كتب الأنبياء. ورأى بعض الباحثين أن أولى المدونات المسيحية لم تكن سوى نصوص مقتبسة من كتب العهد القديم، تلك النصوص التي تتحدث عن انتظار مجيء المسيا (لقد دُعيت هذه النصوص: شهادات الأنبياء). وعلى أي حال لم يكن من الصعب أن تحفظ النصوص المقتبسة عن ظهر قلب.

وكان يجب أن يظهر التباين بالضرورة بين المواعظ الشفهية التي كان يلقيها مختلف الدعاة، وهو ما فرضته أسباب موضوعية (انتقائية الذاكرة)، وذاتية (المقاصد اللاهوتية التي وضعها هذا الداعية أو ذاك نصب عينيه). إذن، لقد كانت المسيحية المبكرة من حيث جوهر الأمر، عبارة عن كثرة من التنويعات التي غالباً ما كان المشترك بينها ضعيفاً، مع أن الجميع كانوا يدورون حول فكرة الإيمان بقيامة المخلص. لقد كان لكل مجموعة «قصة يسوع»

الخاصة بها. وفي تلك الظروف ظهرت رسائل بولس كأحد أقدم مدونات الأدبيات المسيحية. ويرى الباحثون المعاصرون استناداً إلى أسلوب الرسائل ومحتواها، أنها ليست كلها من تأليف بولس، بل ثمة منها ما نسب إليه وحسب. ومن الرسائل التي كتبها بولس فعلاً: رسالة الرومان، ورسالة الغلاطيين، ورسالتا الكورونثيين (يستفاد من هاتين الأخيرتين أن هناك رسالة ثالثة لم تصل إلينا)، ورسالة تسالكونيكيا الأولى، ورسالة الفيليبوسيين، ويضيف بعضهم أحياناً الرسالة التي أرسلت إلى فيلمون. وفي وقت ما عدوا رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس من الرسائل الأصلية، لكن دراسات العقود الأخيرة نفت أصالتها، ورأت أن رسالته الثانية إلى تيموثاوس تنقل تعليماته وإرشاداته بصورة قريبة جداً من واقع فكره وأسلوبه، مع أنه لم يكن هو الذي كتبها. ولا ريب أيضاً في أن بولس لم يكن هو الذي كتب رسالة الأفسسيين التي يختلف أسلوبها اختلافاً تاماً عن الرسائل الأخرى، وربما يكون تلاميذه قد كتبوها بعد وفاته ونسبوها إليه. وتتميز بجلاء رسالة اليهود، من حيث لغتها ومحتواها، فهي لا تشبه قط ما كتبه بولس. ومنذ القرنين ٢-٣م. كان الكتاب المسيحيون (اوريجينوس، وترتوليانوس، و...)، قد شكوا في أن يكون بولس هو مؤلف رسالة اليهود. ولم تكن رسائل بولس كتباً مقدسة عندما كتبها، مع أن بعض الكنائس بجلتها، وأعطتها تأملات مختلفة. فقد جاء في رسالة بطرس التي كتبت في القرن ٢م (ربما تكون هذه آخر المؤلفات التي دخلت كتاب العهد الجديد): «إن الجهلاء وضعيفي الإيمان يهلكون نفوسهم» إذ يجعلون مما جاء في رسائل بولس «شيئاً ما لا يعقل» (رسالة بطرس الأولى) (لم أجد هذا النص في المصدر الذي أشارت إليه المؤلفة - م).

ونحن نقف في رسائل بولس على إسنادات إلى أقوال قالها يسوع، ولكن ليس لهذه دائماً ما يماثلها في الأناجيل القانونية (لقد اتفق على تسمية مثل هذه الأقوال التي وردت لدى كتاب مسيحيين آخرين: «أغرافا»، أي غير مكتوب). ومثالنا على هذا، وصف المجيء الثاني للمسيح في الرسالة الثانية إلى التسالونيكين: «لأننا بهذا نقول لكم قول الرب، إننا نحن الأحياء الذين نبقي لنشهد مجيء الرب، لن ننبه الأموات، لأن الرب نفسه سوف ينزل من السماء لدى إعلان البشرية إذ ينفخ رئيس الملائكة بوق الإله، فيقوم الموتى بالمسيح أولاً، ثم نخطف نحن الأحياء ونطير معهم في الهواء لنلاقي الرب في السحب، وهكذا نبقي مع الرب أبداً». وهناك «أغرافا» أخرى في رسالة الأفسسيين: «لقد قيل في هذا: انهض أيها الرائد وقم من الأموات وسوف ينيرك المسيح». وما يمكن قوله في هذا السياق، هو أنه ربما تكون بعض أقوال يسوع: لوغياته، من أولى المدونات. وقد وضع بابيوس مؤلفاً خاصاً كرسه للوغيات. أي «شرح أقوال

الرب»، وفي العام ١٨٩٧ عثر في مصر على بردية تحمل ثمانية من أقوال يسوع كتبت باللغة الإغريقية، وبعد سنوات عثر على آخر. ويبدأ كل من هذه الأقوال بالفاتحة عينها: «يقول يسوع». ويتوافق بعض من هذه الأقوال مع كلمات يسوع التي وردت في كتاب العهد الجديد: «يقول يسوع. لا يقبل نبي في وطنه، وحتى الطبيب لا يستطيع أن يشفي من يعرفه» (قارن مرقس؛ متى، لوقا، يوحنا). وهناك من اللوغيات ما ينتمي إلى اليهودية - المسيحية: «يقول يسوع. إذا لم تجحدوا هذا العالم، لن تكون لكم مملكة الإله، وإذا أنتم لم تحفظوا السبت، فلن تروا الأب». ومن الواضح دون غناء أن هذا القول يعكس الموقف التسككي للمسيحيين اليهود الأوائل، الذين واصلوا الالتزام بالطقوس اليهودية: ربما يكون هذا واحداً من اللوغيات الأولى. ويتوافق كثير من الأقوال التي عثر عليها مع نص إنجيل توما الذي عثر عليه في مصر، فهذا الإنجيل يتألف بدوره من أقوال متفرقة: على سبيل المثال، «يقول يسوع حيث يوجد اثنان، فلن يكونا من غير الإله، وحيث يكون واحد وحده، هناك أكون أنا معه. ارفع حجراً تجدني هناك، اقطع شجرة، تجدني فيها». إذن قد تكون أقوال يسوع التي عثر عليها في مصر من أقدم المجموعات التي شكلت جنساً إنجيلياً تغيب عنه سيرة حياة يسوع، لكنه تألف من أقواله وتعاليمه.

لقد كان الثلث الأخير من القرن الميلادي الأول برهة زمنية بلغ فيها الإبداع الأدبي المسيحي واحدة من قممه، فقد أدى تشتتهم بعد هزيمة انتفاضة الأعوام ٦٦-٧٠م، إلى زيادة الشقاق في المواعظ. عداك عن هذا أنه لم يبق سوى القليل ممن كان يمكنه أن يقول، إنه سمع كلام يسوع، أو في أقل تقدير كلام تلاميذه. وفي مثل تلك الظروف الصعبة بات جمع عناصر التقليد كلها في كل واحد، ضرورة ملحة. فظهرت أناجيل من جنس جديد: روايات مسهية، كانت نواتها موت المسيح على الصليب من أجل خلاص البشر، وقيامته في اليوم الثالث. وحول هذه النواة احتشدت أقوال يسوع، وأمثاله، والنبوءات التوراتية عن المسيا، ومشاهد من حياة يسوع (حقيقية أو مركبة) متوافقة وهذه النبوءات. ولم تكن هذه سيرة حياة: لم يول المؤلفون أي أهمية لليقينية التاريخية، بل أنشؤوا تاريخهم المقدس الخاص بهم، فنوهوا بالوقائع الحقيقية التي كانت قائمة واستمر وجودها في الرواية الشفهية القديمة، وهي الوقائع التي كان تجاهلها أمراً مستحيلاً. وقام على هذه الخلفية جمع فريد بين الموعظة التعليمية والقصة، وهي عملية تميّزت بها الأناجيل القانونية، وعدد من تلك التي لم تدخل كتاب العهد الجديد، لا سيما الأناجيل اليهودية - المسيحية، ومقاطع الأناجيل التي اكتشفت في مصر. ومن المعروف أن العالم الإغريقي - الروماني قد عرف جنس السير، ولكن الأناجيل

تميزت عن هذه الأخيرة بتوجهها اللاهوتي، وغايتها التبشيرية، واستخدامها للتقليد. وفي الأول أعدت الأناجيل لتلاوتها بصوت مسموع في اجتماعات المؤمنين ثم ما لبث أن ظهر في الكنائس المسيحية أناس كتبوا التقليد ودرسوه. وهكذا جاء في الرسالة إلى الأفسس أن المسيح جعل بعضهم رسلاً وبعضهم الآخر أنبياء، وبعضهم الثالث إنجيليين، ورعاة ومعلمين. وفي الرسالة الأولى التي كتبها بولس بنفسه إلى الكورونثيين، أشار إلى الأنبياء، والرسل، والمعلمين. ولكن ليس لدى الإنجيليين ما يوافق واقع الحال في الكنائس المسيحية زمن بولس.

أما أقدم الأناجيل القانونية، فهو أقصر الأناجيل، إنجيل مرقس. ويدعى هذا في أصله الإغريقي: الإنجيل حسب مرقس (وكذلك الإنجيل حسب متى، ولوقا، ويوحنا). ويزعم أن مؤلف الإنجيل الثالث الذي بدأه بالقول: «كما كان كثيرون قد أخذوا يضعون روايات عن الأحداث المعروفة بيننا تماماً». قد قصد إلى إنجيل مرقس، الذي كان يعرفه معرفة جيدة. وحسب الرواية التي حافظ عليها يوسفوس القيصري أن مرقس كتب بدقة متناهية ما حفظه عن بطرس الذي كان يعمل مترجماً له. ويقع تاريخ وضع هذا الإنجيل في حوالي العام ٧٠م، بعد تدمير أورشليم مباشرة. ولكن الإنجيل القانوني الذي وضعه مرقس لم يكن الكتاب الوحيد الذي حمل اسمه. فإلى المسيحية المصرية، وتحديدًا الإسكندرية، ينتمي مقطع إنجيل غير قانوني (يدعى أيضاً بالإنجيل السري أو الباطني) كتبه مرقس أيضاً. وكان هذا المقطع قد ورد في رسالة الكاتب المسيحي كليمنت الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، التي عثر عليها في دير سوري في خمسينيات القرن ٢٠. وقد عنون كليمنت رسالته هذه إلى المدعو ثيودوروس. ورأى ناشر هذه الرسالة، م سميث^(١)، أن الرسالة أصلية وكذلك المقطع الذي احتوته أصلي أيضاً (الأصح أنهما مقطعان وليس مقطعاً واحداً). فالرسالة ليست غريبة عن أسلوب كليمنت، إلا أنه من الواضح أن مؤلفاً آخر هو الذي كتب النص الإنجيلي الوارد فيها. ويرى أكثر الباحثين المعاصرين هذا الرأي نفسه. ومن المعروف أن مرقس الإنجيلي بُجل في الإسكندرية بصفته مؤسس الكنيسة المسيحية في هذه المدينة. ويروي يوسفوس القيصري أن مرقس توجه إلى مصر وكان أول من كرز بالإنجيل فيها. وتخبر رسالة كليمنت أن مرقس نقل في الإسكندرية إنجيله إلى دائرة محدودة من الأشخاص المؤمنين بالمعرفة الحقة. وهنا في الإسكندرية أتم مرقس كتابة إنجيله. ويبرز كليمنت في رسالته أن مرقس كتب هذا الإنجيل بنفسه إلى المختارين، إلا أن كتابته أعيدت بعد ذلك من جديد، وأنه حرف على أيدي أنصار المدعو كاربوكراتوس، الذي عد المسيحيون الأرثوذكسيون تعاليمه هرطقة:

1- Smith M. Clement of Alexandria and Secret Gospl of Mark 51- Harvard 1373.

لذلك بالضبط ساق كليمينت في رسالته مقطعين من النص الأصلي «السري» لإنجيل مرقس، لكي يقارنه ثيودوروس بهرطقة الكاربوكراتوسيين. وعليه يمكننا أن نتحدث الآن عن وجود روايتين في أقل تقدير، لإنجيل مرقس: الرواية التي دخلت الكتاب القانوني، وقد كتبت كما لو أنها موجهة إلى المسيحيين كلهم؛ والرواية التي كان يجب أن يستخدمها المختارون، ورأى كليمينت أن هذه الأخيرة كانت أكثر إسهاباً من الأولى. فقد وردت في مقطع رسالة كليمينت، قصة الفتى الذي أقامه يسوع من الموت. فعدا تابعه. وقد تكون هذه القصة مرتبطة بتعميد يسوع لأتباعه. ولم يرد أي ذكر لهذه القصة في أي من الأنجيل الثلاثة الأولى. وكل ما في الأمر أن إنجيل يوحنا يقول في مكان واحد، إن يسوع كان يعيش مع التلاميذ ويعمّد. ويرى م سميث أن الفتى المذكور في مقطع رسالة كليمينت قد جاء بعد قيامته إلى يسوع عارياً ليتقبل منه المعمودية. ويقول الكاتب المسيحي هيبوليت (أواخر القرن ٢ أوائل القرن ٣م) في «الروايات الرسولية»، إن من كان يتقبل المعمودية وكذلك الذي يعمده، كانا يقفان في الماء عاريين. وثمة لوحة فسيفسائية في بابتيستيري (مكان التعميد) الأريوسيين (أنصار الأسقف آريوس الذي أنكر عقيدة الثالوث؛ عاش وعلم في أوائل القرن ٤م)، يظهر فيها يسوع واقفاً في مياه الأردن وهو عار تماماً. وإذا ما حاكمنا الأمر وفق المقطع المذكور، فإننا نستطيع أن نفترض أن المعمودية كانت بالنسبة للمسيحيين الأوائل سراً خاصاً لم تكن طقوسه تقام علانية. وهكذا طرحت نفسها على بساط البحث العلمي، مسألة العلاقة بين إنجيل مرقس القانوني وإنجيله السري. وثمة وجهة نظر تقول باستقلالية الإنجيل «السري» عن الإنجيل القانوني (وجهة نظر كروسان)، أو بظهور الأول قبل الثاني (وهي وجهة نظر س. ج باترسون، ومن المعروف أن إنجيل مرقس القانوني، هو رواية معدلة عن إنجيله السري، استثنى منه بعض المقاطع). وربما كانت تنتمي إلى هذا الإنجيل أيضاً، الإضافة التي وردت في آخر أحد مخطوطات إنجيل مرقس بين الإصحاحات (دعيت هذه الإضافة Freer Logion^(١)): اسم الباحث الذي اكتشف المخطوط) يقول النص المضاف: «وتذرعوا (أي الرسل) قائلين: هذا عصر الكفر وطغيان الشيطان، الذي يمنع عبر الأرواح الدنسة إدراك القوة الإلهية الحقّة. ولذلك أظهري لنا أيتها العدالة. فأجابهم المسيح: لقد تحققت مملكة الشيطان. لكن أحداثاً رهيبة توشك، لأولئك الذين قبلت الموت من أجلهم، من أجل أن

1- the complete Gospels p 410 D.D Crossan the Biuth of Christianity p. 115.

يعودوا إلى الحقيقة^(١) ولا يَأْثَمُوا بعد ، بل يرثوا الروح ، والمجد الأزلي الطاهر في السموات» .
ولكننا يجب أن نعتزف بوجه عام ، أن مشكلة تشكيل النص القانوني لإنجيل مرقس لا تزال تنتظر أبحاثاً واكتشافات جديدة .

وما يثير الاهتمام أكثر فيما يتعلق بإشكاليات إنجيل مرقس ، هو أن نص هذا الإنجيل كان الأساس الذي أنشئ عليه إنجيلا متى ولوقا : لا يثير التشابه الكبير بين أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأولى أي شك ، وما يخرج لدى متى ولوقا خارج إطار رواية مرقس ، مأخوذ عن رواية شفوية لإحدى المجموعات المسيحية ، لكن الإضافة الأساس فيهما مأخوذة من مدونة لم تصل إلينا ، جمعت أقوال يسوع بين دفتيها (يحمل هذا المصدر في الدراسات العلمية الرمز Q ، وهو الحرف الأول من الكلمة الألمانية Quelle : مصدر) . فالأماكن المشتركة في إنجيلي متى ولوقا ، والتي لا وجود لها لدى مرقس ، تتطابق تطابقاً حرفياً تقريباً ، الأمر الذي يدل على أن مصدرهما مدون وليس شفهيّاً . ويتألف الجزء الرئيس من هذا المصدر من أقوال المسيح المجموعة وفق موضوعاتها ، إلا أنه ثمة بعض القصص التي تتخللها : قصة إغواء يسوع ، وقصة معجزة الشفاء . وقد كتب المصدر Q باللغة الإغريقية : يقضي تطابق نصي لوقا ومتى بأن يكونا قد قرأ المصدر باللغة الإغريقية ، ولم يترجما من الآرامية . ومكنت الآن ، المقارنة الدقيقة لأقوال يسوع لدى كل من لوقا ومتى ، من استرجاع نص المصدر Q بدرجة مرضية ، ووفر تحليل النص أساساً للظن بأن الذين جمعوا هذه الأقوال قد عدوا ملاحقين ومضطهدين كأبناء إسرائيل القدماء : فقراء ، جوعى ، منبوذين من أقاربهم وشعبهم . وكان ردهم على هذا ، تهديد إسرائيل بالعقاب لأنها أنكرت يسوع وأنصاره . ونحن لا نعرف على وجه اليقين إلى أي درجة تعكس الأقوال المجموعة في المصدر Q كلمات يسوع الأصلية ، إذ قد تكون على أرجح تقدير ، انعكاساً لفهم العالم من قبل واحدة من مجموعات أنصاره الأوائل ، التي دخلت مؤلفاتها جزئياً ، الإنجيل القانوني .

ولا يزال زمن إنشاء الإنجيليين الآخرين وتسلسلها التاريخي غير معروفين حتى الآن . وما يمكنه قوله عنهما في الوقت الحاضر ، هو أنهما أنشأا في وسطين اجتماعيين - اثنيين متباينين . فمؤلف إنجيل لوقا هو إغريقي مثقف (يقول يوسفوس القيصري إنه كان طبيباً من أنطاكية) . وبرز لديه تعاطف واضح مع الفئات الشعبية الدنيا ، إذ يؤكد أن هؤلاء سوف يكونون أولاً في مملكة الإله : في إنجيل لوقا بالذات يولد يسوع في مغل للحيوانات وليس في

١ - قد تكون العودة إلى الحقيقة مرتبطة في هذا السياق باعتقادهم ، أنه ينبغي على الإنسان أن يكتشف معرفة الحقيقة التي زرعها الروح فيه .

منزل كما لدى متى، ولا يهمل لمولده لدى لوقا السحرة بتقدماتهم الثمينة، إنما رعاة بسطاء وجاء في وصايا الطوبى، أنه طوبى للفقراء، والمساكين، والعطاش.

أما إنجيل متى فإنه يظهر صلات أوثق بالتقليد اليهودي. وشاع لدى الكتاب المسيحيين في القرون ٢-٤ رأي مفاده أن متى وضع إنجيله باللغة الآرامية، ثم ترجم بعد ذلك إلى الإغريقية. ويقول إيرينيوس، إن الإيبينوثيين كانوا يستخدمون إنجيلاً آرامياً. وقد اشتغل مترجم النص التوراتي إلى اللغة اللاتينية هيرونيموس بالبحث عن المخطوطات في فلسطين وسوريا، وأكد هيرونيموس أنه ترجم من اللغة اليهودية (قصد بهذا اللغة الآرامية) إلى اللغة الإغريقية إنجيلاً رأى فيها كثيرون النص الأصلي لإنجيل متى. ولكن الباحثين يرون أن النص القانوني الذي وصل إلينا لا يمكن أن يكون نصاً مترجماً. فالنصوص التوراتية الواردة فيه مأخوذة عن الترجمة السبعونية، والنصوص المشتركة مع إنجيلي مرقس ولوقا ليست مترجمة هي الأخرى.

ويتميز إنجيلاً متى ولوقا بكونهما يوردان سلسلة أنساب تعيد نسب يوسف النجار، زوج ماريّا، إلى داود الملك، وهو ما يبرز واقعية رسالة يسوع المسيانية. وفي الآن عينه يحضر في الإنجيلين معاً الاعتقاد الذي كان قد ساد عن حبل ماريّا بيسوع من غير رجل. ولا يناقض نسب يسوع هذه الفكرة: من وجهة نظر اليهود، عندما أخذ يوسف ماريّا زوجة له، اعترف بيسوع ابناً له، وبذا تكون مسيانية يسوع قد باتت معللة. لقد أقامت موضوعة الحبل بلا دنس صلة خاصة بين يسوع والإله؛ ضف إلى هذا أنه من الوجهة اللاهوتية كان من المهم بالنسبة للمسيحيين أن يظهر أن يسوع كان في حل من الخطيئة الأصلية. وكان لوقا هو الأكثر تفصيلاً في معالجة هذا المحور، إذ أدخل مشهدَي البشارة، وزيارة ماريّا لأليصابات والدة يوحنا المعمدان. وكان هذا عنده بمثابة رواية فنية أعدت قبل كل شيء للمسيحيين الهلنيين الذين نشؤوا على الأدب الإغريقي. أما متى فهو أكثر تحفظاً بكثير: الحبل بلا دنس بالنسبة إليه سر لا لزوم لمعرفة تفاصيله ولا يجب أن تعرف.

أما الإنجيل القانوني الرابع، إنجيل يوحنا، فإن مسألة تأريخه حتى نسبياً، لا تزال مسألة شائكة. ويتميز هذا الإنجيل من حيث المحتوى، والشكل، ومواعظ يسوع، تميزاً جوهرياً عن أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأخرى. وحسب التقليد الكنسي فإن إنجيل يوحنا كان الإنجيل الأخير. وفيقيدنا يوسفوس القيصري بأن يوحنا كان يعظ شفهيّاً، لكنه قرر بعد أن ظهرت الأناجيل الثلاثة أن «يسد النقص» الذي تعاني منه. والواقع أن بداية إنجيل يوحنا نفسها، حيث يدعى فيها يسوع «كلمة» («و صار الكلمة جسداً، وأقام

معنا»، تعطي الرواية كلها مغزى دينياً - فلسفياً خاصاً، فالرواية كلها تساق كأنها على لسان التلميذ الذي كان حبيباً إلى قلب يسوع، من غير أن يذكر اسمه. ولكن تأليف الإنجيل الرابع كان قد أثار شكوكاً منذ القدم. فقد رأى بابيوس مثلاً، أن الإنجيل الرابع ورؤيا يوحنا اللاهوتي عملان وضعهما شخصان مختلفان، ولم يكن سوى الثاني منهما حسب رأيه، تلميذاً ليسوع (يوسفوس القيصري، التاريخ الكنسي). وإذا كان مؤلف الإنجيل الرابع قد اطلع على الأناجيل الثلاثة الأولى، فإنه عملياً لم يحاول الإفادة منها. فهو لم يصف مولد يسوع، ولا مشهد معموديته: يتحدث يوحنا عن هذا الحدث الأخير نقلاً عن آخرين؛ كما لا يشير إلى مشهد صلاة يسوع في بستان جشيماني ولا يذكر آخر كلماته من العهد القديم، أي كل ما ينتمي إلى التقليد اليهودي - المسيحي المبكر حيث تبرز طبيعة يسوع البشرية. وفي الوقت نفسه ثمة في هذا الإنجيل، كما في كل المؤلفات الأخرى التي تنسب إلى يوحنا، تطابق واضح مع مخطوطات قمران، خاصة استخدام تعبير «الماء الحي»، الذي يتواتر استخدامه مرات في إنجيل يوحنا كما في مخطوطات قمران، وهو ما يشهد على أنه كان ثمة تقليد يربط بين اليسيين وأنصار يسوع الأوائل، تقليد ربما كان قد انعكس في المؤلفات الأولى التي كان مؤلف الإنجيل الرابع على اطلاع عليها. ومجمل القول، كما يكتب أ. تش كوزارجيفسكي، أن «الإنجيل الرابع يعكس فكراً لاهوتياً على مستوى عال من التطور، بعيداً عن استخدام الكلمات القديمة المتروكة التي يعج بها نص الرؤيا، فما بالك بوثائق قمران». ومن الواضح أن الكاتب المسيحي الشهير بوليكاربوس (القرن ٢م)، مؤلف الرسالة إلى الفيليبوسيين، لم يكن يعرف شيئاً عن الإنجيل الرابع، على الرغم من أن الرواية تقول إنه كان تلميذاً ليوحنا. ولكن هذا لا يدل على أن إنجيل يوحنا قد وضع في زمن متأخر بقدر ما يشهد على مدى محدودية انتشار هذا الإنجيل. أما فيما يتعلق بالمكان الذي كتب فيه هذا الإنجيل، فإن هناك عدة روايات: في أفسس، في سوريا، في جزيرة باتموس. ولكن الثابت هو أن هذا العمل كتب في وسط مجموعة متميزة من المسيحيين الذين استندوا إلى تقليد مغاير لذلك الذي استخدمه مرقس: ربما كان هؤلاء تلاميذ يوحنا الذين استمعوا يوماً إلى قصصه. وفي مصر عثر على بردية تحمل مقطعاً من إنجيل يوحنا (١٨ إصحاحاً)، وقدر المتخصصون أن تاريخ البردية يرجع إلى الأعوام ١٢٥-١٣٠م. إذن في الثلث الأول من القرن ٢م، كان إنجيل يوحنا قد بات معروفاً، ونسخ في مصر، أما تاريخ تأليفه فيرجع تقديراً، إلى أواخر القرن الميلادي الأول.

تميزت عن هذه الأخيرة بتوجهها اللاهوتي، وغايتها التبشيرية، واستخدامها للتقليد. وفي الأول أعدت الأناجيل لتلاوتها بصوت مسموع في اجتماعات المؤمنين ثم ما لبث أن ظهر في الكنائس المسيحية أناس كتبوا التقليد ودرسوه. وهكذا جاء في الرسالة إلى الأفسس أن المسيح جعل بعضهم رسلاً وبعضهم الآخر أنبياء، وبعضهم الثالث إنجيليين، ورعاة ومعلمين. وفي الرسالة الأولى التي كتبها بولس بنفسه إلى الكورونثيين، أشار إلى الأنبياء، والرسل، والمعلمين. ولكن ليس لدى الإنجيليين ما يوافق واقع الحال في الكنائس المسيحية زمن بولس.

أما أقدم الأناجيل القانونية، فهو أقصر الأناجيل، إنجيل مرقس. ويدعى هذا في أصله الإغريقي: الإنجيل حسب مرقس (وكذلك الإنجيل حسب متى، ولوقا، ويوحنا). ويزعم أن مؤلف الإنجيل الثالث الذي بدأه بالقول: «كما كان كثيرون قد أخذوا يضعون روايات عن الأحداث المعروفة بيننا تماماً». قد قصد إلى إنجيل مرقس، الذي كان يعرفه معرفة جيدة. وحسب الرواية التي حافظ عليها يوسفوس القيصري أن مرقس كتب بدقة متناهية ما حفظه عن بطرس الذي كان يعمل مترجماً له. ويقع تاريخ وضع هذا الإنجيل في حوالي العام ٧٠م، بعد تدمير أورشليم مباشرة. ولكن الإنجيل القانوني الذي وضعه مرقس لم يكن الكتاب الوحيد الذي حمل اسمه. فإلى المسيحية المصرية، وتحديداً الإسكندرانية، ينتمي مقطع إنجيل غير قانوني (يدعى أيضاً بالإنجيل السري أو الباطني) كتبه مرقس أيضاً. وكان هذا المقطع قد ورد في رسالة الكاتب المسيحي كليمنت الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، التي عثر عليها في دير سوري في خمسينيات القرن ٢٠. وقد عنون كليمنت رسالته هذه إلى المدعو ثيودوروس. ورأى ناشر هذه الرسالة، م سميث^(١)، أن الرسالة أصلية وكذلك المقطع الذي احتوته أصلي أيضاً (الأصح أنهما مقطعان وليس مقطعاً واحداً). فالرسالة ليست غريبة عن أسلوب كليمنت، إلا أنه من الواضح أن مؤلفاً آخر هو الذي كتب النص الإنجيلي الوارد فيها. ويرى أكثر الباحثين المعاصرين هذا الرأي نفسه. ومن المعروف أن مرقس الإنجيلي بُجّل في الإسكندرية بصفته مؤسس الكنيسة المسيحية في هذه المدينة. ويروي يوسفوس القيصري أن مرقس توجه إلى مصر وكان أول من كرز بالإنجيل فيها. وتخبر رسالة كليمنت أن مرقس نقل في الإسكندرية إنجيله إلى دائرة محدودة من الأشخاص المؤمنين بالمعرفة الحقة. وهنا في الإسكندرية أتم مرقس كتابة إنجيله. ويبرز كليمنت في رسالته أن مرقس كتب هذا الإنجيل بنفسه إلى المختارين، إلا أن

1- Smith M. Clement of Alexandria and Secret Gospl of Mark 51- Harvard 1373.

كتابته أعيدت بعد ذلك من جديد ، وأنه حرف على أيدي أنصار المدعو كاربوكراتوس ، الذي عد المسيحيون الأرثوذكسيون تعاليمه هرطقة: لذلك بالضبط ساق كليمنت في رسالته مقطعين من النص الأصلي «السري» لإنجيل مرقس ، لكي يقارنه ثيودوروس بهرطقة الكاربوكراتوسيين. وعليه يمكننا أن نتحدث الآن عن وجود روايتين في أقل تقدير ، لإنجيل مرقس: الرواية التي دخلت الكتاب القانوني ، وقد كتبت كما لو أنها موجهة إلى المسيحيين كلهم؛ والرواية التي كان يجب أن يستخدمها المختارون ، ورأى كليمنت أن هذه الأخيرة كانت أكثر إسهاباً من الأولى. فقد وردت في مقطع رسالة كليمنت ، قصة الفتى الذي أقامه يسوع من الموت. فغداً تابعه. وقد تكون هذه القصة مرتبطة بتعميد يسوع لاتباعه. ولم يرد أي ذكر لهذه القصة في أي من الأناجيل الثلاثة الأولى. وكل ما في الأمر أن إنجيل يوحنا يقول في مكان واحد ، إن يسوع كان يعيش مع التلاميذ ويعمّد. ويرى م سميث أن الفتى المذكور في مقطع رسالة كليمنت قد جاء بعد قيامته إلى يسوع عارياً ليتقبل منه المعمودية. ويقول الكاتب المسيحي هيبوليت (أواخر القرن ٢ أوائل القرن ٣م) في «الروايات الرسولية» ، إن من كان يتقبل المعمودية وكذلك الذي يعمده ، كانا يقفان في الماء عاريين. وثمة لوحة فسيفسائية في بابتيستيري (مكان التعميد) الآريوسيين (أنصار الأسقف آريوس الذي أنكر عقيدة الثالوث؛ عاش وعلم في أوائل القرن ٤م) ، يظهر فيها يسوع واقفاً في مياه الأردن وهو عار تماماً. وإذا ما حاكمنا الأمر وفق المقطع المذكور ، فإننا نستطيع أن نفترض أن المعمودية كانت بالنسبة للمسيحيين الأوائل سراً خاصاً لم تكن طقوسه تقام علانية.

وهكذا طرحت نفسها على بساط البحث العلمي ، مسألة العلاقة بين إنجيل مرقس القانوني وإنجيله السري. وثمة وجهة نظر تقول باستقلالية الإنجيل «السري» عن الإنجيل القانوني (وجهة نظر كروسان) ، أو بظهور الأول قبل الثاني (وهي وجهة نظر س. ج باترسون ، ومن المعروف أن إنجيل مرقس القانوني ، هو رواية معدلة عن إنجيله السري ، استثنى منه بعض المقاطع). وربما كانت تنتمي إلى هذا الإنجيل أيضاً ، الإضافة التي وردت في آخر أحد مخطوطات إنجيل مرقس بين الإصحاحات (دعيت هذه الإضافة Freer Logion^(١) : اسم الباحث الذي اكتشف المخطوط) يقول النص المضاف: «وتذرعوا (أي الرسل) قائلين: هذا عصر الكفر وطغيان الشيطان ، الذي يمنع عبر الأرواح الدنسة إدراك القوة الإلهية الحقّة. ولذلك أظهري لنا أيتها العدالة. فأجابهم المسيح: لقد تحققت مملكة الشيطان. لكن أحداثاً رهيبة توشك ، لأولئك الذين قبلت الموت من أجلهم ، من أجل أن

1- the complete Gospels p 410 D.D Crossan the Biuth of Christianity p. 115.



بردية رايلندس. مقطع من أنجيل يوحنا (١٨: ٣١-٣٣، ٣٧-٣٨)
لائحة النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. مانشستر

وفي حقيقة الأمر أن الأناجيل التي غدت فيما بعد أناجيل قانونية، لم تكن سوى جزء غير كبير من المؤلفات الإنجيلية التي وضعها المسيحيون. ونحن كنا قد تحدثنا عن وجود أناجيل يهودية - مسيحية، كما وصلت إلينا مقاطع من أناجيل غير قانونية نوه بها المؤلفون المسيحيون، ويمكننا أن نتيقن إلى هذه الدرجة أو تلك من صحة انتمائها إلى مؤلفيها، ضف إلى هذا مقاطع من أناجيل مجهولة دونت على برديات عثر عليها مدفونة في أرض مصر. ومن أقدم هذه اللقى زمنياً (في العام ١٩٠٣م)، بردية أوكسيرينكس، التي حملت مقاطع صغيرة من أقوال يسوع (بعضها مدرج في وضع واقعي)، ولكن يجب أن نعترف بصعوبة ترميمها وامتناعها عن تشكيل نص متماسك. وحسب اعتراف العلماء أنفسهم، أن ترميم العبارات بحد ذاته يبقى مسألة إشكالية. ففي واحدة من العبارات التي تعد واضحة إلى حد ما، يلوم الكتبيون، والفريسيون، والكهنة يسوع لأنه يجلس إلى مائدة واحدة مع الآثمين. لكن إجابة يسوع غير مقروءة بصورة واضحة. وقد تكون متوافقة مع ما ورد في إنجيل مرقس، وإنجيل متى. وربما كان النص الأوضح قراءة في هذه البردية، هو نص مقطع من أقوال يسوع أعيد ترميمه بصورة مقنعة: يتحدث يسوع فيه عن ضرورة الصلاة من أجل الأعداء، «لأن من ليس ضدك، فهو معك» («إلى جانبك»). قارن مرقس). وقد أعطى تحليل المقاطع (بما في ذلك بناء

التعابير والقواعد) أساساً للظن بأن المقاطع المعنية لا تنتمي إلىصوص العهد الجديد مباشرة، ونص البردية نفسه يرقى إلى القرنين ٤-٥ ، لكن الباحثين يرون أنه وضع قبل هذا التاريخ بزمان طويل. وتكمن أهمية هذه اللقية بالنسبة للدراسات المسيحية ، في أن مصر واصلت استخدام الأناجيل غير القانونية التي استخدمت رواية تشبه رواية العهد الجديد ، حتى بعد أن أقر هذا الأخير قانوناً.

ولكن الاهتمام الأكبر تثيره بردية أوكسيرينكس ٨٤٠ ، وبردية أخرى تسمى بردية إدجرتون (حسب اسم المجموعة الموجودة فيها). وكان قد عثر على مقطع أوكسيرينكس في أوائل القرن ٢٠ ، ونشر في العام ١٩٠٨. وهذه الوثيقة عبارة عن ورقة واحدة ملئ جانبها بكتابة صغيرة الحرف: ربما كانت هذه البردية حرزاً ما. ففي بداية المقطع يحذر يسوع تلاميذه من الغدر الذي يمكن أن يؤدي بصاحبه إلى التهلكة. ويتضمن القسم الرئيس من المقطع الذي وصل إلينا المواجهة التي وقعت بين يسوع والكاهن ليفي في معبد أورشليم (يستخدم النص الإغريقي كلمة ارخيوريوس بدلاً من كلمة كاهن ، إلا أن هذه الأولى لا تعني بالضرورة: «رئيس الكهنة» ، إنما تعني أحداً ما من كبار الكهنة). ويشبه هذا المقطع من حيث جنسه الأدبي ونزعه الأساسية ، التقليد الذي يقوم في أساس أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأولى. ولكن محور هذا المقطع مستقل قائم بذاته: ليس في الأناجيل القانونية مشاهد تتعلق بالاغتسال بالماء لدى الدخول إلى المعبد.



بردية إدجرتون. مقطع من إنجيل مجهول
لائحة النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. المتحف البريطاني

لقد حاول العلماء مطابقة وثيقة أوكسيرينكس مع مختلف الأناجيل: مع إنجيل اليهود، وإنجيل المصريين، وإنجيل الناصريين، وإنجيل بطرس؛ إلا أن المسألة لا تزال مفتوحة. أما الفكرة الرئيسية التي يبرزها هذا المقطع لدى وصف مواجهة يسوع مع الكاهن الفريسي، فهي رفض يسوع لشكليات الشعائر الدينية (يعد إدغام الكاهن والفريسي في شخصية واحدة، حالة غير عادية من الوجهة التاريخية، لكنها مفهومة في سياق المواجهة بين يسوع وأنصاره من جهة، والفريسيين والكهنة من جهة أخرى). وفي غضون ذلك وضعت المقارنة بين الفريسي الذي يغتسل بالماء الراكد الآسن، ويسوع وتلاميذه الذين يغتسلون «بماء الإيمان الحي»، وضعت بصورة أكثر حدة بكثير مما هي عليه الحال في الجدل الذي دار في إنجيل مرقس حول عدم غسل الأيدي (مرقس). كما تثير البنية التعبيرية لهذا المقطع اهتماماً خاصاً: يتحدث يسوع فيه عن الكلاب والخنازير، ولكن من الصعب أن يكون ثمة خنازير في أورشليم، فهي عند اليهود حيوانات نجسة، ولذلك فإننا على أرجح تقدير أمام تعريف حاد جداً لحالة القذارة الطقوسية والفيزيائية التي يمكن أن يكون عليها أناس «دنسون» روحياً: لا يقتصر الأمر على كون الاغتسال بالماء الراكد لا يطهرهم، إنما هم يجعلونه أكثر قذارة إذ يغتسلون به. أما بالنسبة إلى المسيحيين المصريين، فقد كانت هذه الصورة واضحة تماماً، لأن الإغريق الذين كانوا مقيمين في مصر كانوا يربون الخنازير. وفي الإنجيل القانوني جاء رد يسوع على اتهام الفريسيين هذا، باتهامه لهم بالمرءة لأنهم إنما يمجدون التقليد وليس الكتاب المقدس. وينقطع نص مقطع البردية عند كلمات غاضبة تنذر من لا يتطهر روحياً بالهلاك: على أي حال هكذا يجب أن يكون مغزى الجملة الأخيرة من كلام يسوع. وقد يكون القرن الميلادي الثاني هو تاريخ ظهور هذا الإنجيل، الذي من الواضح أنه وضع في مجرى رواية العهد الجديد. فمحتواه يشير إلى أن الرواية (الشفهية؟) لم تكن راسخة بعد، الأمر الذي مهد سبيل ظهور شتى تنويعات تعاليم يسوع ومشاهد أعماله.

ولدينا مقطع آخر يدعى إنجيل ايجرتون، عثر عليه مكتوباً على بردية أيضاً. كما عثر على عدد من المقاطع الأخرى في العام ١٩٣٤، وقد نشرت هذه في العام التالي^(١). وقد زعم ناشرها بيل أن النص قد كتب على البرديات في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني، أما الإنجيل الذي تنتمي إليه هذه المقاطع، فقد كتب في الربع الأول من القرن عينه، وفي الأحوال كلها قبل العام ١٥٠ م^(٢). ورأى بيل أيضاً، أن المقاطع كتبت على أساس رواية إنجيل يوحنا،

١- وهناك مقطع صغير آخر عثر عليه ونُشر في العام ١٩٨٧ (بردية كيلن - papyrus kuln ٢٢٥).

2- Bell H.1 Recent Discoveries of Biblical papyr. Oxford 1937 p. 20.

وكذلك تلك التي يمكن تتبعها في إنجيل لوقا، مع الاستعانة ببعض المصادر الأخرى، بما في ذلك القصص الشفهية. وعارض بيل في غضون ذلك رأي اللاهوتيين معارضة شديدة، إذ رأى هؤلاء أن مقاطع البرديات قد صنفت ببساطة على أساس مزيج مقتبس عن أناجيل العهد الجديد الأربعة (المرجع نفسه). وقد رأى كثير من الباحثين المعاصرين أن مقاطع بردية إيجرتون مستقلة تماماً عن أناجيل العهد الجديد. فلفة المقاطع، وطريقة استخدام الكلمات فيها لا يشبهان ما نقرؤه لدى مؤلفي الأناجيل الثلاثة الأولى، أما التقليد الذي يجمعها مع إنجيل يوحنا، فإن إعداده أضعف مما هي عليه الحال في الكتب القانونية، الأمر الذي يجيز لنا أن نفترض أن الكتاب الذي وصلت إلينا مقاطعه على البردية، يرقى إلى زمن أقدم، بالمقارنة مع زمن كتابة إنجيل يوحنا. فقد يكون النص الأول لكتاب مقاطع البردية، قد كتب في إقليم فلسطين - سوريا في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول. وعندئذ تقريباً وضعت الروايات الإنجيلية الأخرى، ولكن اللافت، هو أن كتاب المقاطع هذا قد بجل وقدس ونسخ في مصر إلى جانب الأناجيل غير القانونية الأخرى، حتى بعد أن انتشرت كتب العهد الجديد.

إن بردية إيجرتون تعكس الزمن الذي كانت قد تكونت فيها طبقات مستقلة من الروايات: أقوال يسوع، وأمثاله، وقصص حياته الدنيوية، وبعثه. لكن هذه الروايات تأرجحت لدى كتابة النصوص وفق فهم كل مؤلف واختياره.

وببدأ المقطع بنبذات يتضح منها أنهم اتهموا يسوع بانتهاك القانون اليهودي المعمول به. ثم تلي ذلك قصة تقول إنهم قرروا رجم يسوع بصفته مرتدّاً عن الدين، ولكنه تخلص من بين أيدي «الحكام» (وليس المقصود هنا طبعاً الحكام الرومان، إنما شيوخ اليهود، وكهنتهم). وفي هذه المشاهد تحديداً يمكن أن نرصد تماثلاً مع إنجيل يوحنا (مثلاً، «... لم يضع أحد يده عليه، لأن ساعته لم تأت بعد»). وتؤوّل مسألة تأدية جباية الإمبراطور (قيصر) هنا تأويلاً مغايراً تماماً للتأويل الذي ورد في كتاب العهد الجديد. والمسألة لا تتعلق هنا بالجباية التي فرضها الرومان على اليهود (كما تؤكد الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى)، بل بالموقف من سلطة الدولة على وجه العموم: هل يجب تأدية ما تفرضه سلطة الملوك؟ لم يعط يسوع إجابة محددة على هذا السؤال، واتهم من سألوه بالمراعاة والغدر. ونلمس من تنويع هذا المشهد التي وردت في البردية، معاكسة العالم الدنيوي بمملكة الإله التي كان المسيحيون ينتظرون قيامها بفارغ الصبر. ولم تكن مسألة «تأدية الجباية أو عدم تأديتها» ذات أهمية تذكر بالنسبة لواضعي هذا الإنجيل، لأنهم كانوا بانتظار النهاية الوشيكة لهذا العالم ورموزه، بما

في ذلك السلطة والمال و... كما لا ننفي أن يكون فهم المسيحيين الغنوصيين المصريين قد أثر على صياغة إجابة يسوع، وكان هؤلاء قد رأوا أن الاتحاد مع الإله هو الأمر الجوهرى، وليس السلوك الدينى.

وجاء المقطع الأخير من إنجيل إيجرتون متقطعاً تقطعاً شديداً. وكل ما تستطيعه خياله، هو أن نخمن فقط أن الحديث يدور فيه عن معجزة ما صنعها يسوع على ضفة نهر الأردن، وهي المعجزة التي تبين مغزى سؤال طرحه يسوع على تلاميذه (نص السؤال لم يبق، ولكن بقيت كلمات تنقل حالة الحيرة والارتباك التي سببها السؤال للتلاميذ). وعلى أي حال يبدو أن هذه المعجزة كان يجب أن ترمز إلى الإيمان الحق الذي تطرح بذوره ثمرات كثيرة. وقد بذل العلماء جهوداً كثيرة لترميم هذا النص، ولكن آياً من محاولاتهم لم تلق التأييد المأمول. ولا يزال هناك مقطع إنجيلي آخر يثير الجدل بين الباحثين، واللاهوتيين، وكان هذا قد اكتشف في العام ١٨٨٦ في مصر في قبر راهب قرسطوي. وكان هناك أيضاً كتاب رؤيا بطرس وكتاب حنوك. وينتمي مخطوط البرغاموس نفسه إلى القرنين ٨-٩م، ولكن لغته وأسلوبه يشيران إلى انتمائه للأدبيات المسيحية المبكرة. وربما وضعت هذه النصوص في قبر الراهب كتمائم، أو ربما كان الراهب المصري لا يشارك الكنيسة رأيها تجاه الكتب غير القانونية فأوصى بأن ترافقه هذه النصوص الثمينة بالنسبة إليه إلى الدار الآخرة، فهي على أي حال نصوص ترتبط بأسماء رسل أجلاء، كما هي حال بطرس مثلاً، وهو من أقرب التلاميذ إلى يسوع.

والمقطع الذي نحن بصدد مكرس لمحاكمة يسوع وصلبه وقيامته. وهو يبدأ عند منتصف تعبير وينقطع عند منتصف كلمة تقريباً. ولكن الناسخ لم يكن يعرف أكثر مما بقي في مقطع ورقة البرغاموس: قبيل مكان انقطاع الجملة الأولى، وبعد الجملة الأخيرة غير المكتملة، رسم زخرفة من خطوط وصلبان متداخل بعضها مع بعض. ومن الواضح أنه حتى هذا المقطع الصغير كانت له قيمة كبرى لدى هذا الراهب المؤمن وأسلافه، فحافظوا عليه، ونسخوه وزخرفوه برموز مقدسة.

لقد جرت مطابقة المقطع الذي عثر عليه هنا مع إنجيل بطرس، استناداً إلى كون الرواية تروى فيه بصيغة المتكلم، ويدعو مؤلفها نفسه باسم سمعان بطرس. وكان الكاتب المسيحي أوريجينوس الذي عاش في الحقبة المتأخرة للقرنين ٢-٣م، قد نوه بإنجيل بطرس هذا في: «تعليقات على إنجيل متى»، وكذلك فعل يوسفوس القيصري في: «التاريخ الكنسي». وفي سياق معالجته لمسألة أخوة يسوع الذين ذكرهم إنجيلاً مرقس ومثى (مرقس؛ متى)، كتب

أورجينوس يقول، إن الاعتقاد بأن أخوة يسوع، هم أبناء يوسف من زواجه الأول، هو اعتقاد يرجع إلى إنجيل بطرس. ويؤكد يوسفوس القيصري في «التاريخ الكنسي»، أن سيرايبون أسقف كيليكيا والكنيسة المسيحية في سوريا (حوالي العام ٢٠٠)، اكتشف أن المؤمنين في هذه الكنيسة الأخيرة يستخدمون إنجيل بطرس. وفي الأول أذن الأسقف لهم بقراءة هذا الإنجيل، ولكنه بعد أن قرأ النص جيداً وتمعن فيه، أرسل إلى مسيحيي اسقفية رسالة خاصة منع فيها قراءة إنجيل بطرس. وسبب هذا المنع حسب سيرايبون، هو أن الدوكيتين استخدموا هذا الإنجيل، والدوكيتيون، هم «أسلاف أولئك الذين استمدوا نشأتهم منهم». وكلمة «دوكيت» مأخوذة بالأصل من الكلمة الإغريقية دوكيو: يهياً له: وهي تسمية أطلقت على جماعة من المسيحيين أنكروا الطبيعة البشرية ليسوع المسيح، وعدوا وجوده على الأرض مجرد تهيؤ، غير حقيقي. وقد شاعت تعاليم الدوكيتين التي تشبه تعاليم الغنوصيين، شاعت في سوريا إبان القرن ٢م. ومع إدانته للدوكيتين الذين أثروا على إنجيل بطرس، إلا أن سيرايبون أكد في الوقت نفسه على أن كثيراً مما في هذا الإنجيل «يتوافق مع التعاليم الحقيقية للمخلص، إلا أن بعض الوصايا قد زيدت إليه». وفي مكان آخر من مؤلفه: «التاريخ الكنسي» يقول يوسفوس رأيه الخاص في إنجيل بطرس هذا واصفاً إياه بأنه إنجيل موضوع زائف.

ويسود في وقتنا الراهن رأى في الدراسات العلمية مفاده، أن نص إنجيل بطرس الذي وقع بين يدي سيرايبون، لم يكن النص الأول لهذا الإنجيل، إنما نسخة دس الدوكيتيون أنفسهم بها. وهذا ما تشير إليه كذلك، كلمات كاتب مسيحي آخر عاش على تخوم القرنين ٤-٥م، هو ثيودوريت الذي قال في مؤلفه: «ترهات الهرطقة وبدعهم»، إن اليهود (الناصرين) يجلون يسوع بصفته إنساناً عادلاً، ويستخدمون إنجيلاً يدعى إنجيل بطرس. بيد أنه من الواضح أنه إضافة إلى المسيحيين السوريين، استخدم هذا الإنجيل المسيحيون المصريون أيضاً. في العام ١٩٧٢ نشرت مقاطع إنجيلية صغيرة (oxyrinchus Papyrus 2949)، فيها وصف لطلب يوسف الرامي من بيلاطس، قبيل إعدام يسوع، أن يسلمه جثمانه، وهو ما يتوافق مع المقطع ذي الصلة في إنجيل بطرس. ويرقى تاريخ هذه البردية إلى أواخر القرن ٢- وأوائل القرن ٣م. وتشهد اللقطة المصرية، وكذا مقطع البيرغاموس، على أن هذا الإنجيل كان مبعجلاً مقدساً لزمان طويل في مصر (حتى القرون الوسطى).

وينتمي إنجيل بطرس إلى الجنس نفسه الذي تنتمي إليه أناجيل العهد الجديد. أي أنه لا يحتوي فقط على التعاليم، إنما يحتوي كذلك على مادة روائية: وصف محاكمة يسوع

وصلبه، كما يرد فيه أيضاً ذكر أخوة يسوع. وأقرب أناجيل العهد الجديد القانونية إلى رواية بطرس، هو إنجيل لوقا، إلا أن التباين بين الإنجيلين جوهري أيضاً.

إن المقطع الذي بين يدينا يصف محاكمة يسوع وإعدامه وقيامته، كما يصف أيضاً سلوك شيوخ اليهود، والشعب، والحاكم الروماني بيلاطس البنطي. ولكن الدور الرئيس في محاكمة يسوع كان لهيرودوس أنتيبا، حاكم الجليل (حيث كانت تعيش عائلة يسوع هناك في الناصرة). ونحن نرى أن زج هيرودوس هذا في محاكمة يسوع الذي عدوه جليلاً، هو أمر منطقي معقول، بخاصة أنه قد ورد اسمه في إنجيل لوقا، وأعمال الرسل، وهما مؤلفان يعتقد أن مؤلفهما شخص واحد. بيد أننا نقف في إنجيل بطرس على تقليد يرتبط بأناجيل قانونية أخرى: يجري الحديث فيها مثلاً، عن المسامير التي دقت في يدي يسوع وقدميه، وهو ما قاله إنجيل يوحنا أيضاً.

وثمة في وصف آلام يسوع قبيل إعدامه، تفاصيل تختلف فيها رواية إنجيل بطرس عن رواية أناجيل العهد الجديد، مع أن الروايتين تتطابقان من حيث الأساس. ويقوم الفرق بينهما مثلاً، في أنهم أجلسوا يسوع على كرسي القضاء وخاطبوه ساخرين: «احكم بالعدل يا ملك إسرائيل». وليس هناك أي إشارة إلى كرسي القضاء في الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى، بينما يجلس على هذه الكرسي لدى يوحنا، بيلاطس وليس يسوع. ولهذا التفصيل أهميته لأنه يرد لدى يوستينوس المنافع في القرن الثاني، في مؤلفه: «المنافحة». وهناك تشابه واضح بين مصطلحات إنجيل بطرس، إذ يبدو أن يوستينوس قد أفاد من هذا الأخير. ويتوافق إسناد يوستينوس أكثر ما يتوافق مع إنجيل بطرس، لأنه مكتوب بصيغة المتكلم.

وجاء وصف مشهدي موت يسوع وقيامته متميزاً وفريداً في إنجيل بطرس. فيسوع لم يتألم وهو على الصليب، وقال قبيل موته الجملة الآتية: «قوّتي، قوّتي، أنت تركتني!». وبعد ذلك أصدع. وتوحي مخاطبة يسوع قوة ما، وليس الإله كما ورد في الأناجيل القانونية، بإمكانية أن تكون كلمات يسوع قد حررت بتصرف على أيدي المجموعات المسيحية التي رأت أن قوة إلهية خاصة قد دخلت يسوع إبان فترة حياته الأرضية. ويجيز لنا وصف موت يسوع أن نعتقد بوجود صلة ما مع الدوكيتين، لأن الجسد المتخيل لا يمكن أن يكابد آلاماً. بيد أنه من وجهة نظر مؤلف الإنجيل، كان يمكن أن يرتبط غياب الآلام بوجود قوة ما في داخل يسوع تبقى على الحياة فيه. وما يثير الاهتمام في هذا السياق، أن فكرة القوة الإلهية وردت في أعمال الرسل: تساق هناك كلمات بطرس الرسول التي تقول، إن الإله مسح يسوع «بالروح القدس، والقوة» (أعمال). ومن الواضح أن مؤلف الأعمال لم يربط الكلمات التي تتحدث عن القوة بالرسول بطرس مصادفة.

أما وصف مشهد قيامة يسوع فيبدو وصفاً خيالياً ومتعارضاً مع ما ورد في الأناجيل القانونية عن الحدث. ففي الإنجيل تحدث معجزة القيامة سراً. أما في إنجيل بطرس فهي تحدث أمام جميعهم، إذ يخرج رجلان رجلاً ثالثاً من القبر له مظهر خيالي: رأسه أعلى من السماء، ويسير الصليب خلفه من تلقاء نفسه، ويصدر عن الصليب صوت يجيب على السؤال الآتي: هل بشرت الأموات؟ وكأن هذا يؤكد فكرة الدوكيتين التي تقول، إن طبيعة يسوع البشرية لم تكن سوى طبيعة ظاهرية متخيلة، وأن ما يبعث من الموت، هو طبيعته الحقيقية. إذن من الذي يجيب من الصليب؟ يمكننا أن نفترض أن هذا الوصف قد عكس التصور الذي كان شائعاً زمنئذٍ عن انفصال الإهاب الجسدي ليسوع عن الروح الذي دخل فيه: يسوع الموجود منذ الأزل (أو القدرة) يقول هيرما في مؤلفه: «الراعي»، الذي يرقى إلى القرن ٢م، إن الإله وضع الروح القدس «الموجود من قبل»، في الجسد الذي اختاره هو بنفسه. لقد بعث جسد يسوع من الموت لأنه جاهد كثيراً وتآلم كثيراً. وقد قدس كثير من المسيحيين كتاب «الراعي» هذا الذي يعد من جنس الرؤيا، بل أدخل كتاب العهد الجديد الذي يرقى تاريخه إلى القرن ٤م. (ويدعى قانون سيناء). أما الصليب الذي شارك في مشهد القيامة، فهو ليس مجرد أداة إعدام، بل غدا رمز «شجرة الحياة»، ففي رؤيا بطرس أن الصليب يرافقه إلى السماء^(١).

لقد أعطى هذا التخيل كله، إضافة إلى فيض المعجزات التي سيقى لدى وصف مشهد القيامة، أساساً للاعتقاد بأن هذا الإنجيل المنحول قد وضع في زمن متأخر نسبياً، بالمقارنة مع الأناجيل القانونية. ولكن الدراسات العلمية المعاصرة تؤيد فكرة الصلة القائمة بين النص الأول لهذا الإنجيل والروايات اليهودية - المسيحية. وتبدو آثار التأثير اليهودي - المسيحي واضحة في هذا المنحول، لدى معاكسته العلية اليهودية: الكهنة والشيوخ، بالشعب. فالشعب لا يشارك في إدانة يسوع الذي تجري محاكمته وفق إنجيل بطرس هذا، في مقر الحاكم الروماني أو في قصر هيرودوس في أورشليم. وبعد الصلب سخط الشعب وسار يدق الصدور معلناً إيمانه بالمخلص. وما يذكر في هذا السياق، أن إنجيل لوقا ينوه كذلك إلى حزن الشعب وندمه: عندما قادوا يسوع إلى مكان الإعدام سارت خلفه كثرة من الشعب والنساء تبكي وتلطم، وبعد أن صلب عاد الشعب «يلطم في الصدور» (لوقا). لقد كان يمكن أن تكون

١- لقد عالج ج. دانيلو بالتفصيل «طقوسية الصليب» في تعاليم اليهود المسيحيين، وتعاليم الغنوصيين J. theologie di iudeo iudeo- chritianime Tournae, 1958 p 291-292 Danielou. في إنجيل فيليبوس

الغنوصي يدغم الصليب بالشجرة، وتتم القيامة بفضل «شجرة الحياة».

معاكسة الشعب بالكهنة من السمات التي تميزت بها الجماعات اليهودية - المسيحية التي رأت أن سلوك الكهنة والفريسيين قد دنس معبد أورشليم. ومن المعروف أيضاً أنه كانت هناك فرق يهودية لم تعترف بالمعبد: الذين أقاموا في البرية حول البحر الميت في منطقة قمران، وكان يمكن أن يتأثر واضعو إنجيل بطرس بتعاليمهم.

كما تبدو درجة تبعية إنجيل بطرس للأنجيل القانونية، مسألة إشكالية بدورها. فقد شاع لزمن طويل رأي قال بوجود مثل هذه التبعية، لكن رأياً مغايراً أخذ يشق طريقه إبان السنوات الأخيرة بعناد، مفترضاً استقلال إنجيل بطرس عن أناجيل العهد الجديد استقلالاً تاماً، بل يتحدث أصحاب هذا الرأي عن أقدمية الأسس الأولى لهذا الإنجيل على الأنجيل الأربعة. فيؤكد كروسان أن وصف مشهد القيامة ينتمي إلى مصدر مستقل مبكر يدعوه اصطلاحاً: «إنجيل الصليب» ويعزوه إلى اليهود - المسيحيين الذين اتهموا عليه المجتمع اليهودي بكل شيء، لأنهم كانوا هم أنفسهم مرفوضين من قبل الأرثوذكسية اليهودية. كما يعزو كروسان إلى اليهودية - المسيحية التنويه ببشارة المسيح للأموات، وتعد هذه أول إشارة إلى نزول المسيح المزعوم إلى الجحيم. وتقف في إنجيل أحدث عهداً، يدعى إنجيل نيقوديموس (القرنان ٣-٤م) على رواية مسهبة تصف نزول المسيح إلى الجحيم، وتحريره الآباء اليهود الأوائل، والأنبياء من جحيم المملكة السفلية والمحيء بهم إلى الجنة. ولا نقف في إنجيل بطرس على مثل هذه التفاصيل، لكن فكرة بشاراة الأموات يمكن أن تكون مرتبطة بكون المسيحيين الذين لم يكونوا قد قطعوا بعد صلتهم باليهودية، عاجزين عن قبول فكرة بقاء أسلافهم المقدسين محرومين من نعمة الخلاص لأنهم لم يعرفوا المسيح.

وهناك باحثون آخرون يقولون بأن هذا الإنجيل قد وضع في وقت مبكر، فيرى الأمريكي أ. ج. ديفيه في مقدمته التي وضعها لهذا النص في الطبعة الأمريكية لإصدار «الأنجيل الكاملة»، أن إنجيل بطرس يعكس الرواية الأقدم للآلام. ويشير إلى أن وصف الآلام كله، قد قام على التلميحات والنصوص المقتبسة من المزامير التوراتية والأنبياء. ومن الواضح أن هذا الوصف لم يهدف إلى عكس الوقائع التاريخية (لم تكن هذه قد بدأت تثير اهتمام أتباع يسوع بعد)، بل كان بمثابة رد وهمي متخيل على الصدمة التي أحدثها هلاك يسوع، الذي لوحق، وعذب، لكنه حقق الخلاص في الموت. أما طقوسية معجزة القيامة التي وصفت في إنجيل بطرس: ظهور المبعوثين الإلهيين أمام أعين كثير من الشهود، وذعر المذنبين من الانتقام، فهي من حيث الجوهر تعويض للهوان الذي لحق بأنصار يسوع أثناء إعدامه المذل. وجاء في الكتاب المذكور نفسه، إن النص الأول لإنجيل بطرس، يرقى إلى زمن لا يتجاوز

التصنيف الثاني من القرن الميلادي الأول (أقدم التواريخ: حوالي العام ٥٠م). وبمعنى آخر، أن الباحثين أخذوا أثناء تحليل النص، العامل السيكلولوجي بالحسبان، وقد يكون لهذا العامل الدور الأكبر في إنشاء القصص الأولى عن موت يسوع وقيامته. ولا يطاتل تغير وجهة النظر حيال الترتيب الزمني لهذا الكتاب المنحول ونسبه، مسألة خاصة فقط، إنما يؤثر أيضاً في القارئ المعاصر لتاريخ الأدبيات المسيحية المبكرة وسيكلولوجيا من أنشؤوه. ويبدو على أرجح تقدير أن المقطع الذي وصل إلينا، ليس هو النص الأول الأصلي لإنجيل بطرس، الذي نسخ فيما بعد، وجرت معالجته على أيدي جماعات منها جماعات كانت قريبة من الدوكيتين، ولكن الكتاب حافظ مع ذلك على أساسه الأول. ومن الواضح أن إنجيل بطرس هذا قد جرى إنشاؤه عندما كانت لا تزال المادة الإنجيلية مادة هلامية لا يحكمها أي قانون، وكان التعامل معها حراً من أي ضوابط.

أما التشابه بين رواية هذا الإنجيل والروايات القانونية، فيمكن أن يعزى إلى كون من وضعوا هذا الكتاب قد استخدموا لعرض حياة يسوع الزمنية، الرواية الشفهية عينها التي استخدمها لوقا، أو ربما كان مؤلف الإنجيل الثالث على معرفة بإنجيل بطرس^{١٩} فني بداية إنجيله يقول هذا الأخير مخاطباً المدعو ثيوفيل، إن كثيرين قد أخذوا يكتبون روايات «عن الأحداث المعروفة بيننا معرفة جيدة». إذن ليس مرقس وحده من وضع إنجيلاً، بل ثمة آخرون وهم أكثر.. وعلى أي حال، بما أننا لا نعرف النص الكامل لإنجيل بطرس، فإنه من العسير علينا، إن لم يكن من المستحيل، أن نقول أي قول محدد حول كامل محتواه. ومن المهم أن نشير إلى أن اكتشاف مقاطع من إنجيل بطرس في مصر، لم يكن من قبيل المصادفة: لقد كان بطرس شخصية مبدجة لدى مسيحيي وادي النيل كله. ولدى شيوع المسيحية في النوبة (في القرن ٦م)، تحولت معابد آلهة مصر إلى كنائس مسيحية، وعثر في واحدة منها على رسم بدائي لبطرس بكامل قامته (كتب اسمه على الرسم)، تحيط به نقوش وثنية نافرة^(١). كما بقيت في دوائر مسيحية معينة ذكرى وجود إنجيل وضعه بطرس: جاءنا من القرون الوسطى رسم للمسيح يسلم كتاباً (إنجيلاً^{٢٠} للرسول بطرس^(٢)). وقد يعثر في وقت ما على مقاطع أخرى تلقي مزيداً من الضوء على محتوى هذا العمل المتميز، وتبين أهميته الحقيقية.

في ١٩٤٦ ظهرت في مصر أهم الاكتشافات المرتبطة بالمسيحية. فبينما كان الفلاحون يؤدون أعمالهم الزراعية المعتادة عند سفوح جبل الطريف على الضفة اليسرى لنهر النيل، غير

١- بوميترا نيسيف، ن. ف. أيقونات جدران دير ثيراسا مصر القديمة والمسيحية. موسكو، ٢٠٠١، ص ٦١.
2- Leipodet J, Moren Heilige Schriften Leipzig 1953. tf 12.

بعيد عن قرية خينوبوسكيون (نجع حمادي حالياً)، وقفوا على مخبأ. وكان هذا عبارة عن مكتبة عثر فيها على أكثر من أربعين نصاً دينياً مكتوباً باللغة القبطية (وهي اللغة الأم لسكان مصر الأصليين، وكانت قد تطورت على أساس اللغة المصرية القديمة). وقد وضعت هذه النصوص مجموعة دينية متميزة من الذين دعواهم بالغنوصيين، الذين كانوا يرتبطون بالمسيحية المعدلة. وترقى النصوص التي عثر عليها في المخبأ، إلى القرون ٣-٥م، إلا أن أكثر المؤلفات المعنية كانت قد كتبت قبل ذلك باللغة الإغريقية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة القبطية. وكان بين المخطوطات المكتشفة هنا: إنجيل توما، وإنجيل فيليبوس، وإنجيل ماريا، وإنجيل الحق. وكان إيرينوس قد كتب في كتابه «ضد الهرطقات»، ساخطاً على هذا الإنجيل الأخير فقال، إن بعضهم «وصلت به الوقاحة حداً جعله يدعو مؤلفه إنجيل الحق». وكانت تسمية مؤلفي هذه المؤلفات بالغنوصيين قد اشتقت من كلمة غنوصييس (gnosis) : معرفة. وقام في أساس رؤى الغنوصيين، تصورهم عن المعرفة الحدسية الموجودة في الإنسان، والتي يمكنه بمساعدتها أن يدرك الإله المطلق ويتحد به. لكن العالم الزمني لا يديره هذا الإله، إنما يديره خالق غير كامل. وجادل مؤلفو هذه الأناجيل (أو محرروها) الموضوعات الأساس لأناجيل العهد الجديد. فمن أول أقوال إنجيل توما القبطي على سبيل المثال قوله: «قال يسوع: إذا قال لك الذين يقودونك: انظر، إن الملكوت في السماء! فعندئذ سوف تسبقك الطيور. وإذا قالوا لك إنه في البحر، فعندئذ سوف تسبقك الأسماك. لكن الملكوت السماوي في داخلك وليس خارجك». وبدورهم جهد الكتاب المسيحيون من أتباع المسيحية الكنسية (أو الأرثوذكسية)^(١) في القرن ٢م، في مناظرة الغنوصيين (وهم بالذات من أسهب في استخدام هذه المصطلح). وكان الموضوع الرئيس الذي ركز عليه إيرينيوس انتقاداته، هو مختلف المؤلفات الغنوصية التي وصفها بالمؤلفات «الأبوكريفية والموضوعة». وكان مصطلح أبوكريف قد استخدم أول ما استخدم في سياق المؤلفات الغنوصية التي استخدم مؤلفوها صوراً رمزية معقدة، وأعطوا مغزى سحرياً للمركبات العديدة التي لا يمكن أن يدركها سوى «المختارين» وليست بمتناول إدراك غير المكرسين. ومثل هذه الطريقة هي بالذات التي مكنت إيرينيوس من أن يصف مؤلفات الغنوصيين بالمؤلفات الأبوكريفية، وبما أنه جادل هؤلاء لكي يبين أنهم يحرفون تعاليم يسوع الحقيقية، فقد عد مؤلفاتهم التي زعم أنها كتبت باسم الرسل، مؤلفات سرية، بل موضوعة ومنحولة. كما استخدم ترتوليانوس أيضاً المصطلحات: سرية - موضوعة - منحولة. وبعد ذلك باتت تستخدم كلمة «أبوكريف» لتسمية

١- كان كليمنت الإسكندري أول من استخدم كلمة «ارثوذكس» للدلالة على ذوي الإيمان النقي.

كل مؤلفات المسيحيين الأوائل التي لم تعترف بها الكنيسة مؤلفات مقدسة ، مع أن كثيراً منها لم يكن سرّياً ، بل كان يقرأ علناً من قبل بعض الفرق المسيحية.

وشاع إلى جانب الأنجيل جنس آخر من الكتب المقدسة ، هو الرؤيا ، الذي تنتمي إليه رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ وحسب معظم العلماء المعاصرين أن رؤيا يوحنا هذه قد كتبت في عهد الإمبراطور الروماني دومسيان في حوالي العام ٩٠م. كما كانت هناك رؤيا بطرس أيضاً ، وقد عثر على نصها مع مقطع من إنجيل بطرس. وتحتوي رؤيا بطرس على أقدم وصف لجنة المسيحيين وجحيمهم. فالجنة في هذا الكتاب مدى رحب جداً يقع خارج هذا العالم ، وينبعث منه نور مبهر خارق ، أما الجحيم فقد دعته الرؤيا مكان العقاب (ومن الطريف أن ملائكة جلادين هم الذين ينزلون العقاب وليس خدم الشيطان من يفعل ذلك). ولكن عثر على كتاب رؤيا آخر لبطرس في مكتبة نجع حمادي ، وليس ثمة ما هو مشترك بين رؤيا بطرس الأولى ورؤياه الثانية هذه التي تعكس بدقة المعتقدات الشعبية التي كانت سائدة في أوائل القرن ٢م. وتؤكد الرؤيا الغنوصية على أن من علق على الصليب هو الإهاب الجسدي المتخيل للمخلص ، وليس المخلص نفسه؛ يذكر هناك أن بطرس الذي كان يشهد الصليب رأى يسوع واقفاً إلى جانبه مشرقاً باسماء ، وقد قال ، إن الذي يدقون المسامير في يديه وقدميه ليس سوى الإهاب الجسدي وحسب. وينتمي إلى جنس الوحي أحد المؤلفات التي شاعت شيوعاً عريضاً في أوساط المسيحيين الأوائل: مؤلف «الراعي» الذي كتبه المدعو هيرما (شخص نسبت إليه كتابه هذا المؤلف). وهذا الكتاب عبارة عن وصف لسلسلة من الرؤى تختلف عن الرؤيا القانونية المرمزة ترميزاً معقداً يتطلب فك رموزه فهماً خاصاً. فرؤيا هيرما مؤلف كتب لدائرة عريضة من القراء العاديين ، إنه كتاب شعبي يشرح الراعي فيه كل الرؤى ورموزها وتورياتها في معرض رده على أسئلة هيرما «الجاهل».

كما عرفت علاوة على الكتب التي عكست تعاليم يسوع ، ومعجزاته ، ومختلف ضروب الرؤيا ، كتب أخرى ضبطت الحياة الداخلية للكنائس المسيحية. ومن مثل هذه الكتب ، كتاب: تعاليم الاثني عشر رسولاً ، أو الديداخي ، الذي عثر عليه في القرن ١٩م. ويعد هذا المؤلف أهم مصادر دراسة تنظيم الكنائس الأولى ، وسوف نتوقف عنده في حينه.

إن كثرة تنويعات البشارة ، والنزاعات بين الدعاة وضعت أمام مسيحيي بعض الكنائس مهمة اصطفاء الكتب التي كان يمكن أن تكون مصادر لتعاليم الديانة المسيحية. وقد حاول تلاميذ يوستين تاتيان إيجاد حل لهذه المسألة: وضع يوستين سرداً مبتكراً لأنجيل العهد الجديد الأربعة ، مضيفاً عليها بعض النصوص التي تتوافق مع نصوص من إنجيل

اليهود. ودعا يوستين مؤلفه هذا: دياتيسارون (= «حسب الأربعة»). ولم يتضمن الدياتيسارون سلسلة أنساب يسوع، كما لم يتطرق إلى سنوات طفولته. وترجم الدياتيسارون إلى اللغة السريانية، وعده المسيحيون السوريون لزمن طويل، كتاباً مقدساً. ولدى إجراء أعمال السبر الأثاري في قلعة دورايوروبوس السورية الواقعة على ضفة الفرات، عثر هناك على مقطع من الدياتيسارون يرقى تاريخه إلى القرن ٣م. ويدل مؤلف يوستين هذا على شيوع الأناجيل الأربعة من جهة، ورغبة المسيحيين في استخدام الكتب المقدسة من جهة أخرى.

وكانت قد جرت قبل محاولة يوستين تاتيان هذه، محاولة أخرى لاصطفاء عدد من الكتب بهدف وضع نص له مصداقيته وهيبته. وقد ارتبطت هذه المحاولة باسم ماركيون، وهو مالك سفن ثري جاء إلى روما من آسيا الصغرى. لقد قدم ماركيون مساعدة مالية كبيرة لكنيسة روما، وكان له فيها نفوذ كبير. وأكد الرجل على أن تعاليم يسوع قد حُرقت في النصوص الشائعة لدى المسيحيين، ولم ينتق سوى إنجيل لوقا وعشر من رسائل بولس. ونحى من إنجيل لوقا النصوص التوراتية المقتبسة التي رأى أنها أدخلت النص من قبل أنصار اليهودية. وحسب «تحريره» هذا، أن إنجيل لوقا لم يتضمن خرافتي ولادة يسوع ويوحنا المعمدان. وقد افترض ماركيون أن يسوع نزل من السماء في العام الخامس عشر من عهد الإمبراطور طيباريوس، وظهر في كفرناحوم. وكتب إيرينيوس عن ماركيون ساخطاً يقول: «إنه يجدف بطريقة وقحة على الإله الذي دعا إليه الناموس والأنبياء، وذلك عندما يقول، إن هذا الإله علة الشر، متعطش للحرب، مقاصده متغيرة، ويناقض نفسه بنفسه، وأن يسوع لم يخرج من هذا الإله، إنما من إله أعلى من الإله الذي خلق العالم» (ضد الهرطقات). وتبدو شخصية يسوع في هذا التأويل شبيهة بفهم الغنوصيين له. ولكن أكثر الكنائس المسيحية رفضت تعاليم ماركيون، وطرده مسيحيو روما من كنيستهم. إلا أن محاولات ماركيون وتاتيان أفضت إلى إرغام قادة الكنائس المسيحية على أن ينتقوا من كم الأدبيات المسيحية تلك النصوص التي يمكن عدها مصادر لتعاليم الدين، أي الكتب القانونية.

وكانت كلمة «قانون» (= «ناموس» - م) نفسها كما باقي المفاهيم الأخرى التي اعتمدها المسيحيون، قد جاءت من عالم الوثنية. واستخدمت هذه الكلمة للدلالة على النموذج، المقياس، المعيار. ونقف على كلمة «ناموس» في رسائل بولس بمعنى «طريقة» «...السلام والرحمة لمن يسلكون هذه الطريقة».. (رسالة بولس إلى الغلاطيين). وبعد عملية اصطفاء مديدة للكتب المقدسة، بدأ من أواسط القرن ٤م، استخدام كلمة ناموس بالنسبة لمجموعة الكتب المسيحية المقدسة. أما مصطلح العهد الجديد، فإننا نقف عليه ابتداءً من

أواخر القرن ٢م. تسمية لمجموعة الكتب التي اعترف بها كتباً مقدسة: لقد نوه يوسفوس القيصري إلى مؤلف مجهول المؤلف استخدم فيه مصطلح «العهد الجديد» بهذا المعنى تحديداً على الرغم من أن مفهوم العهد الجديد بحد ذاته (أي العهد المبرم مع الإله)، كان معروفاً قبل ذلك بزمان: في مخطوطات طائفة قمران التي أقام أعضاؤها عهداً جديداً مع الإله. وهنا تعبير مشابه استخدمه إنجيل لوقا: (.. هذه الكأس هي دمي للعهد الجديد، الذي يسفك من أجلكم).

إن أقدم لوائح الكتب المقدسة المعروفة لنا، هي اللائحة - المقطع، التي نظمت في روما في حوالي العام ٢٠٠م (والحقيقة أنه ثمة باحثون يفترضون لها تاريخاً أحدث)، وعثر عليها في العام ١٧٤٠م. وقد دعي هذا المقطع باسم العالم الذي عثر عليه: «ناموس موراتوري»، مع أن كلمة ناموس لم تستخدم هناك. وبصرف النظر عن كون بداية المقطع تلفت ولم تصل إلينا، إلا أنه من الواضح أن الحديث يجري في السطر الأولى عن الأناجيل الأربعة. ويشير واضح اللائحة إلى أن هذه الأخيرة متوافق بعضها مع بعض. ووضعت اللائحة «أعمال الرسل كلهم في كتاب واحد».. والمقصود هنا أعمال رسل العهد الجديد، لأن زمن تنظيم اللائحة كان يعرف أعمال كثيرة من الرسل الآخرين. كما ضمت اللائحة ثلاث عشرة رسالة لبولس (استثيت رسالته إلى اليهود)، لكن منظم اللائحة يتحفظ مؤكداً، أن رسالة بولس الثانية إلى الكورونثيين ورسالته الثانية إلى التسالونيكين مكررتان. وتثير الاهتمام كذلك ملاحظته أنه لم يدرج رسائل بولس إلى تيطوس، وتيموثاوس، وفيليمون في لائحته إلا بدافع من حبه لبولس: من الواضح أن مسيحيي روما لم يروا في رسائل بولس هذه مغزى تعليمياً دينياً، ولكن من المهم أيضاً، أن بولس كان يحظى في روما بالذات بمكانة دينية مرموقة. وليس بين رسائل العهد الجديد المجموعة هنا رسائل بطرس، ورسالة يعقوب، ورسالة يوحنا الثالثة. وبالمقابل فقد ورد هناك كتاب «حكمة سليمان»، وهو الكتاب الذي لا وجود له في الناموس اليهودي القديم. لكنه دخل الترجمة السبعونية. أما عن الرؤيا فقد كتب منظم اللائحة يقول: «لا نقر من الرؤيا سوى رؤيا يوحنا وبطرس (من الواضح أن المقصود رؤيا بطرس اللا غوصية - إ. س)، التي لا يريد بعضنا أن تقرأ في الكنيسة. ولكن هيرما كتب «الراعي» في أيامنا هذه هنا في روما، لما كان شقيقه بيوس أسقفاً، ولذلك يمكن أن يقرأ، لكن ليس علانية في الكنيسة، ولا بين الرسل، ولا بين الأنبياء». إذن، إضافة إلى المحتوى كان لقدم تأليف الكتاب أيضاً دوره في انتقاء الكتب المقدسة. ولم تكن لائحة موراتوري ناموساً بالمعنى الدقيق للكلمة، فهي تعكس موقف مسيحيي روما وحسب، وليس موقف الجماعات

المسيحية في الإمبراطورية كلها. ونحن كنا أشرنا سابقاً إلى أن الناموس النهائي كان أقر في مؤتمر الأساقفة اللذين عقدا في القرنين ٤-٥م. وتلفت الانتباه في الأدبيات المسيحية المبكرة، خصوصية مظهرها الخارجي. فاللقى المبكرة التي عثر عليها في مصر تجيز لنا أن نقول، إن المسيحيين عزفوا عن استخدام لفائف البردي وأخذوا بدلاً منها بالمجموعات: نصوص كتابية مكتوبة على صفحات. وربما ارتبط خيارهم هذا بسهولة قراءة النصوص في البيت كما في اللقاءات العامة للطوائف.

وبعد أن برزت في مختلف الكنائس المسيحية لوائح بأكثر الكتب المقدسة تبجيلاً، ترسخ هنا تقليد معين، فابتداءً من حوالي أواسط القرن ٢م، أخذت تنشأ كثرة من المؤلفات التي بدت كأنها تكمل هذه الكتب: مؤلفات كرسى لطفولة يسوع، لوالدته ماريّا، لبعض الرسل، وأخرى كرسى لمن دعاهم التقليد المسيحي فيما بعد: «شهود المسيح». كما كرس عدد من المؤلفات لبيلاطس البنطي ومحاكمة يسوع، وقد ملئت هذه الكتابات بكثرة من التفاصيل الخرافية التي ابتدعها خيال المؤلفين (فجاء في إنجيل نيقوديموس مثلاً، أن الرماح التي يحملها الحراس الرومان أثناء المحاكمة، قد سجدت أمام يسوع).

ولكن مواقف أساقفة المسيحية تباينت تجاه هذه الكتب: بعضهم حرّمها، وبعضهم الآخر أجاز قراءتها في المنازل، وقامت على أساس هذه الكتب نفسها وليس على أساس الكتب المقدسة، جملة من الأعياد الدينية (ميلاد والدة الإله، دخول يسوع إلى المعبّد، رقاد ماريّا). وقد ارتبط نشوؤها بانتشار المسيحية في أوساط أناس ينتمون إلى شتى القوميات والمعتقدات، والمستويات الثقافية، والآمال الاجتماعية، كما ارتبط نشوء هذه الأعياد أيضاً بخصوصية الوضع التنظيمي والإيديولوجي الذي كان في الكنائس المسيحية عند أواخر القرن الميلادي الأول وأوائل القرن الميلادي الثاني، وهذا ما سوف نتحدث عنه في حينه.